

الملتقي في نقد الجاحظ والجرجاني

أ.د محمد عبد الهادي

أ علي بخوش

قسم الآداب واللغة العربية – جامعة بسكرة.

مقدمة:

ينظر الجاحظ إلى الأدب نظره احترام وتعظيم ؛ فهو يعتبره حرفة وصناعة، كما أن الأدب عنده الكلام الجميل الذي يزود الإنسان بما يحتاج إليه من غذاء عقلي ونفسي في حال الجد والهزل¹ ويمنح الشعر مكانة متميزة ويحدد له ثلاثة ضوابط ومقاييس عامة ؛ أولها تخير اللفظ السهل المخرج الذي يؤدي المعنى بوضوح، والثاني إقامة الوزن وتعني اختيار البحر والعروض المناسبين وتجنب الزحافات والعلل ما أمكن، والثالث كثرة الماء وصحة الطبع².

ويؤكد في كثير من مقولاته على أن الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير غايته نقل صورة فنية إلى الملتقي تحقق له متعة جمالية، مما يعني أن الشعر تتحكم فيه قوتان داخلية تتعلق بالفرد (الم وهبة) وأخرى خارجية مكتسبة (الدربة والتعلم) وتنميتها تؤدي إلى صناعة شعرية بالغة التأثير في نفس الملتقي³.

ولن يحدث هذا التأثير إذا كان الشاعر غريباً عن ميدانه مجبراً على صناعته مضطراً إليها ؛ ذلك أن الجاحظ ينصح ناشئة الأدب وطلاب الشعر أن يختبروا ميولهم للأدب بأنفسهم، فإذا كان الكتاب والأدب أحب إليهم مما سواه من مال الدنيا ومتاعها فهم من أهل الأدب، ولا بأس أن يستمر في هذا الطريق وإلا فعليه أن ينسحب من ميدان الأدب وليفتش عن سبيل آخر⁴.

كما أن الشعر في نظر الجاحظ متعلق بلغته وبيئته تعلقاً كبيراً، فإذا تُرجم إلى لغة أخرى « تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه وسقط موقع التعجب»⁵ ما يجعل الملتقي الذي يتذوقه مرتبطاً بالبيئة نفسها التي يعيشها الشاعر أو على الأقل مرتبط ببلغة الشاعر إن أراد أن يحقق المتعة الجمالية المنشودة.

يتحدث الجاحظ عن أهمية الملتقين في شيوع الإنتاج الأدبي وقبوله لكنه يحدد طائفة خاصة منهم أسماهم العلماء وهم المتخصصون الذين ينبغي على ناشد الصنعة الأدبية أن يرضي ذوقهم : « فان أردت أن تتكلف هذه الصناعة وتنسب إلى هذا الأدب فقرضت قصيدة أو حبرت خطبة أو ألقت رسالة فأياك أن تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحلّه وتدعيه ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار أو خطب فان رأيت الأسماع تصغي له والعيون تحدج اليه ورأيت من يطلبه ويستحسنه فانتحلّه فان كان ذلك في ابتداء أمرك وفي أول تكلفك فلم تر له طالبا ولا مستحسنا فلعله ان يكون ما دام ريباً قضيباً* ، أن يحل عندهم محل المتروك فان عاودت أمثال ذلك مرارا فوجدت الأسماع عنه منصرفه والقلوب لاهية فخذ في غير هذه الصناعة واجعل رائدك الذي لا يكذبك حرصهم عليه أو زهدهم فيه »⁶ ، فالجمهور المثقف أدبيا وتاريخيا ولغويا هو الحكم الصحيح⁷.

وهذا ما جعل الجاحظ يخرج الرواة من دائرة المتخصصين الذين بإمكانهم إصدار الأحكام النقدية الصائبة لأنهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة والمخارج السهلة والسبك الجيد⁸ في حين أن الحكم النقدي السليم هو الذي يستلزم النظرة الشاملة للإنتاج الأدبي .

ولما كان الجاحظ يعلم بأهمية المتلقي ودوره الضروري في إنجاح التواصل الأدبي شعر ونثرا أولاه عناية خاصة ووضعه نصب عينيه وجعله منطلقا وغاية لينتقل به من مجال السماع إلى مجال القراءة⁹.
ويُستحسن التعرض لمفهوم البلاغة عند الجاحظ كمدخل مهم لاستنتاج وضعيّة المتلقي ؛ ومعلوم أن البلاغة لغة تعني الوصول والانتهاء، ومنها انطلق الجاحظ فعرفها تعريفا اصطلاحيا يرتبط بمعناها اللغوي، وهي الوصول والانتهاء إلى الغاية في التبيين والإفهام بأفضل أسلوب وهي بلاغة تخص المتكلم¹⁰.
أما طرف المتلقي في البلاغة فيُحرص - ابتداء - على أن يكون تواصله تاما وناجحا بينه وبين المتكلم وفي هذا الصدد يقول "الجاحظ" في (البيان والتبيين) :

« يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع »¹¹. لكن مهمة المتلقي لا تقتصر على فقط على السماع الجيد، بل إنه يشارك مشاركة فعالة في تحقيق هدف البيان مع المتكلم، لأن البيان «اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع الى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن اي جنس كان ذلك الدليل لان مدار الامر والغاية التي ليها يجرى القائل والسامع انما هو الفهم والافهام»¹².

أي أن البيان هو ما يتم به توضيح المعنى والكشف عنه كشفا يجعل المتلقي بفضي إلى حقيقته¹³.
لكن فهم المتلقي لا يعني أيضا تحقيقه لهدف البيان؛ فليس كل من أفهمنا حاجته فهو بليغ ومن «زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كله سواء وكله بيانا، وكيف يكون ذلك كله بيانا»¹⁴ إنما البيان المقصود والبلاغة المنشودة هي الإفهام على مجاري العرب الفصحاء وأساليبهم القوية البليغة.

والتبيين يختص أكثر بالمتكلم لأنه دوره توضيح معانيه وإبرازها، والتبيين وظيفة المتلقي السامع لأن معناه التأمل والتفكير في هذه المعاني طلبا لاتضاحها وصيرورتها بيّنة، فالتبيين من شأن المتكلم والتبيين من شأن السامع¹⁵.

وعليه فإن وظيفة المتلقي - في ضوء البلاغة - التفهم والاستبانة والتبين وهتك حجاب المعنى والهجوم عليه وتحصيله ولا يحصل ذلك إلا بالتأمل والتفكير في الخطاب الأدبي تأملا وتفكرا يقود إلى المعنى المراد البعيد عن الفساد وسوء التأويل.

يحدث الفهم عند المتلقي من خلال الألفاظ والمعاني التي يهتم بهما الجاحظ اهتماما بالغا، فهو لم يمل كل الميل للمعاني على حساب الألفاظ، إنما أكد أن المعنى إذا كان شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة¹⁶.

ويعتبر الجاحظ أن اللفظ بدن والمعنى روح واللفظ بلا معنى لغو وشيء جامد لا حركة ولا حس ولا منفعة فيه¹⁷ كما يعتبر أن المعاني ممتدة إلى ما لا نهاية¹⁸، لكن هذه المعاني « مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك »¹⁹.

ولما كان أمر المعاني والألفاظ مهما عند الجاحظ اشترط بعض التوصيات للشاعر حتى يتمكن المتلقي من تحقيق المعنى وتبينه وتذوقه ومنها²⁰:

- كراهية اللفظ من الغريب والغريب من المعاني.

- التكلفة الذي يظهر في التشدد والتوهم واستخدام السوق في غير موضعه والمبالغة في الوحشي وغير ذلك.
- كراهية التعقيد في الألفاظ لأنها تتعب القارئ، فمتى كان اللفظ « بريئاً من التعقيد حبيب إلى النفوس واتصل بالأذهان والتحم بالعقول وهشت إليه الأسماع وارتاحت له القلوب »²¹.
- كراهية الفضول والإسهاب.

وهذه الوصايا تراعي مصلحة المستمع والقارئ؛ حيث تسهل له عملية التواصل الأدبي وتقوده إلى الفهم السليم للمعنى، وتمكنه من التفاعل مع النص الأدبي مادام المعنى يصل إليه في عنوبة وينثال عليه انشياً ولا ويتذوقه في غير صعوبة ولا تعقيد ولا تكلفة ولا مبالغة.

وعملياً يراعي الجاحظ المتلقي في كتاباته، إذ سلك مسلكاً معيناً في التأليف يقوم على التنقل بين أبواب الكلام والاستطراد*، وقد عمد إليه حتى لا يمل السامع أو القارئ إن هو أثقل عليه بالإطالة في الموضوع الواحد، ولجأ إلى الاستطراد ليوفر للمتلقى أسباب النشاط والارتياح والتشويق وتجديد الرغبة²².

كما أنه أدرك اختلاف مستويات القراء وتعدد انتماءاتهم وتباين طبقاتهم وميولاتهم، ومثال ذلك مقدمة كتاب البخلاء الذي يبين فيه أن من القراء من يعده كتاباً في الاحتجاج والجدل والإقناع، ومنهم من يعده كتاباً في الاحتيال واللصوصية الظرفية، ومنهم من يجده كتاب ضحكة ومتعة وترفيه عن النفس²³.

ويوصي الجاحظُ القارئ - في سبيل الوصول إلى المعنى الصائب وتحقيقه القصد من الخطاب - بالتثبت والإنصاف والتقوى والتمسك بالحق والبعد عن الباطل، ولا يكون ذلك إلا بتحرر القارئ من أهوائه وتجنبه التعصب لأفكاره ومذهبه²⁴، وفي هذا يقول في مقدمة كتاب الحيوان مخاطباً القارئ خطاباً مباشراً: « جَنَّبَكَ اللَّهُ الشُّبُهَةَ، وَعَصَمَكَ مِنَ الْحَيْرَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَعْرِفَةِ نَسَباً، وَبَيْنَ الصِّدْقِ سَبَباً، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ التَّثَبُّتَ، وَزَيَّنَ فِي عَيْنِكَ الْإِنْصَافَ، وَأَذَاقَكَ حَلَاوَةَ التَّقْوَى، وَأَشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الْحَقِّ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ الْيَقِينِ وَطَرِدَ عَنْكَ ذُلَّ الْيَأْسِ، وَعَرَّفَكَ مَا فِي الْبَاطِلِ مِنَ الذُّلَّةِ، وَمَا فِي الْجَهْلِ مِنَ الْقِلَّةِ »²⁵.

ومنه فإن للمتلقى حقوقاً وواجبات؛ أما حقوقه (على المتكلم) فهي حق الفهم والتبيين والسهولة وتجنب الإغراب والحرص على المعنى السليم وجودة السبك وحسن التصوير، وأما واجباته فهي التفهم والتبيين في طلب المعنى والتثبت والإنصاف والحرص على الحق وتجنب التعصب في تأويل المعاني.

ثانياً : الجرجاني

يعد عبد القاهر الجرجاني من النقاد الذين تناولوا مسألة التلقي بشيء من الإلحاح والتفصيل أكثر مما فعل سابقوه، ولعل مرد ذلك اهتمامه بإعجاز القرآن ومسائل البلاغة والبيان والمعاني مما يتعلق بطرف المتلقي بشكل مباشر وغير مباشر.

وقد نظر إلى المبدع والمتلقي على أنهما ركنان أساسيان متفاعلان في العملية التواصلية. ولذلك دعا المرسل إلى التعقل في ترتيب الكلام واستحداث المعاني، والمتلقي إلى التدبر والتأمل والروية لإزالة أغلفة النص والوقوف على حقيقة معناه، فالنص الأدبي ذو أبعاد متعددة الدلالة ولا يجوز الوقوف على المعاني الظاهرة لألفاظه فقط وإنما يجب الغوص وراء السطور واستعمال الفكر والروية²⁶.

وقد أورد ذلك في كتابه دلائل الإعجاز؛ حيث بدأ بالحديث عن أهمية العلم عامة وعلم البيان خاصة، وما يحتاجه طالب العلم من ضرورة الإلمام بالشعر والنحو وسائر العلوم التي تدخل في هذا الباب، ورأى أن الانصراف عن هذه العلوم هو ابتعاد عن معرفة أسرار القرآن ومعانيه²⁷.

ثم تطرق إلى مسألة البلاغة التي جعلها كائنة في النظم والتأليف وفي الجملة وغير كائنة في الكلمة المفردة ذلك «أن القارئ إذا قرأ قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا فإنه لا يجد الفصاحة التي يجدها إلا من بعد أن ينتهي الكلام إلى آخره فلو كانت الفصاحة صفة للفظ اشتعل لكان ينبغي أن يحسها القارئ فهي حال نطقه به فمحال أن تكون للشيء صفة ثم لا يصح العلم بتلك الصفة إلا من بعد عدمه ومن ذا رأى صفة يعرى موصوفها عنها في حال وجوده حتى إذا عدم صارت موجودة فيه وهل سمع السامعون في قديم الدهر وحديثه بصفة شرط حصولها لموصوفها أن يعدم الموصوف»²⁸.

فالجرجاني يدعو إلى قارئ يبحث عن المعنى ويفتش عن القصد لا قارئ يهتم باللفظ المفرد وزخرفته وجعل هذا الأمر مهما عند المتلقي، حتى إنه قال :

« لم أزل منذ خدمتُ العلمَ أنظرُ فيما قاله العلماءُ في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها فأجدُ بعضَ ذلك كالرَّمز والإيماء والإشارة في خفاء . وبعضه كالتنبية على مكان الخبيء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرجُ »²⁹.

وهذا يعني أن المتلقي أثناء قراءة النص يتعامل مع المستتر، ويتصارع مع العصي الدفين؛ وذلك أنه يكشف الستر، ويطلب المخبوء، مستدلاً بالإشارة والإيماء³⁰، ووفق هذا المفهوم يصبح النص عند عبدالقاهر "شفرة" بين المبدع والمتلقي، كلما أوغل الأول في تعميقها، كان الآخر أمكن في فكها وفهمها حين يوظف خاصية التلقي لديه³¹.

كما يتبين هنا مبدأ بروز الشيء من غير معدنه ، وهو مبدأ له علاقة وثيقة باللذة الأدبية المرتبط بمفاهيم قريبة منها كالجدة والطرافة والغربة والمفاجأة؛ فكلما كان النص غريباً وطريفاً وموغلاً في التعمية احتاج إلى جهد المتلقي ليصل إلى بيانه، وهذا الوصول يحقق اللذة المنشودة، ذلك أنه « من المُرْكُوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف »³².

بيد أن الجرجاني يضع ضوابط للعملية لكي لا يخرج الأمر عن مدار البيان ويدخل إلى مدار الإبهام الذي يرفضه البلاغيون؛ فهو لا يقصد أن يصل المعنى إلى حد التعقيد والتعمية وتعتمد الغموض مما يغلق باب البحث والتفتيش أمام المتلقي، لهذا نجده يوضح مقصده بالمعنى الذي يطلبه المتلقي : « فإن قلت فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً، مشرقاً له وزائداً في فضله، وهذا خلاف ما عليه الناس، ألا تراهم قالوا إن خَيْرَ الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك، فالجواب إنني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب، وإنما أردت القدر الذي يحتاج إليه »³³.

وهو يرى أن تعقيد المعنى مذموم « لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذي يجب في مثله، وكذاك بسوء الدلالة وأودع لك في قالب غير مستو ولا مملس، بل خشن مُضَرَّس حتى إذا رُمَتْ إخراجُه منه عَسُرَ عليك، وإذا خرج خرج مُشوَّه الصورة ناقصَ الحُسْن »³⁴، كما أن جهد المتلقي وطلبه المعنى ينبغي أن يكون لما يستحق ذلك وإلا كان جهداً ضائعاً: « إنما يزيدك الطلبُ فرحاً بالمعنى وأنساً به وسروراً بالوقوف عليه إذا كان لذلك أهلاً، فأمّا إذا كنتَ معه كالغائص في البحر، يحتمل المشقة العظيمة، ويخاطر بالروح، ثم يُخرج الخرز، فالأمر بالصد مما بدأتُ به، ولذلك كان أحقُّ أصناف التعقُّد بالذم ما يُتعبك، ثم لا يُجدي عليك، ويؤرِّقك ثم لا يُورق لك »³⁵.

والنص الأدبي عند الجرجاني دفقات شعورية تجيش في نفس الشاعر موظفة استعارات وقعت موقعها وأصاب غرضها وحسن ترتيب تكامل معه البيان.

الهوامش

- ¹ مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ: الشاهد البوشيخي، دار القلم للنشر والتوزيع، ط2، الكويت، 1415هـ 1995م، ص61.
- ² نظرية الجاحظ في النقد الأدبي : محمد بن عبد الغني المصري، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط1، 1407هـ 1987م، عمان الأردن، ص17.
- ³ مفهوم الخطاب الشعري في التراث النقدي العربي القديم : محمد كراكبي، مجلة التواصل، ع4، عنابة، جوان 1999م، ص29.
- ⁴ نظرية الجاحظ في النقد الأدبي: محمد بن عبد الغني المصري، ص34.
- ⁵ الحيوان: الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج1، ط2، شركة ومكتبة مصطفى الحلبي، مصر، 1384هـ 1965م، ص75.
- * الرئى: الذي ابتدئ في رياضته. القضيب: الذي لم يمهر في الرياضة. ينظر: المصدر نفسه، ص203.
- ⁶ البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص203.
- ⁷ النقد الأدبي في آثار أعلامه: حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1416هـ 1996م، ص27.
- ⁸ النقد الأدبي في آثار أعلامه: حسين الحاج حسن، ص139.
- ⁹ ينظر: إرهاسات نظرية التلقي في أدب الجاحظ: سميرة سلامي، ع106، مجلة التراث العربي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 1428هـ 2007م، ص219.
- ¹⁰ مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ: الشاهد البوشيخي، ص91.
- ¹¹ البيان والتبيين : الجاحظ ، ج1 ، ص87.
- ¹² البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص76.
- ¹³ مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ : الشاهد البوشيخي، ص118.
- ¹⁴ البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص126.
- ¹⁵ ينظر: مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ : الشاهد البوشيخي، ص137.
- ¹⁶ بحوث ومقالات في البيان والنقد الأدبي : محمد بركات حمدي أبو علي، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 1409هـ 1989م، ص53.
- ¹⁷ نظرية الجاحظ في النقد الأدبي: محمد بن عبد الغني المصري، ص84.
- ¹⁸ معجم مصطلحات النقد العربي القديم : أحمد مطلوب، ص383.
- ¹⁹ الحيوان : الجاحظ ، ج3، ص131 - 132.
- ²⁰ ينظر : نظرية الجاحظ في النقد الأدبي: محمد بن عبد الغني المصري، ص88 وما بعدها.
- ²¹ البيان والتبيين : الجاحظ، ج2، ص8.
- * الاستطراد عند الجاحظ هو الانتقال من موضوع إلى آخر لكي لا يمل القارئ أو السامع، وهذا واضح في معظم مؤلفاته. ينظر: معجم مصطلحات النقد العربي القديم : أحمد مطلوب، ص68.
- ²² إرهاسات نظرية التلقي في أدب الجاحظ: سميرة سلامي، ص219.
- ²³ إرهاسات نظرية التلقي في أدب الجاحظ: سميرة سلامي، ص221.
- ²⁴ إرهاسات نظرية التلقي في أدب الجاحظ: سميرة سلامي، ص222.
- ²⁵ الحيوان : الجاحظ، ج1، ص3.
- ²⁶ معنى المعنى في النقد الأدبي بين المبدع والمتلقي، ضحى بلال، نظرية النظم بين المعنى ومعنى المعنى :دراسة نقدية أسلوبية، إعداد ضحى عادل بلال؛ إشراف عصام قصبجي، (ماجستير)، جامعة تشرين 1999ص120.

- 27 عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، ط1، بيروت، 1393هـ 1973م ، ص 13.
- 28 دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، تحقيق : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط5، القاهرة، 2004، ص 407 – 408.
- 29 دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص 34.
- 30 المتلقي عند عبد القاهر الجرجاني : ماجد بن محمد الماجد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ص 3. ينظر:
- 31 المرجع السابق، ص3.
- 32 أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمد محمود شاكر، دار المندني، ط1، القاهرة، 1991، ص 139.
- 33 أسرار البلاغة، ص 139 – 140.
- 34 أسرار البلاغة ، ص142
- 35 أسرار البلاغة ، ص142.